التّداولية: دراسة في المجالات والفروع

أ.علجية أيت بوجمعة
جامعة مولود معمري، تيزي–وزو

مقدمة: ظلّ التصور التجريدي سائدا في مجال البحث اللساني إلى غاية أواسط القرن الماضي، سواء أكان ذلك على يد رائد اللسانيات البنيوية (دي سوسير De-saussure) الذي حصر الدرس اللساني في اللغة المجرّدة بوصفها قدرة ذهنية صرفة تدرس لذاتها ولأجل ذاتها، أو على يد صاحب النظرية التوليدية التحويلية (تشومسكي Chomesky) الذي فتح باب الدلالة وجعلها أساسا للنظريات اللسانية مع اقتصار دراساته على القدرة اللغوية دون الكلام. إلاّ أنّه مع تطوّر البحث اللساني واتساعه ليشمل أبعادا عدّة، سرعان ما دعت الحاجة للنظر إلى اللغة من منظور آخر وهذا باعتبارها الأداة الفعلية لتحقيق التواصل، كما أصبحت شروط إنتاج الملفوظ والأنماط التعبيرية المختلفة جديرة بالدراسة والبحث كذلك. كلّ هذا أسفر عن ظهور منهج لساني جديد أصطلح على تسميته بالتداولية يقوم على الطابع الاستعمالي للغة، هذا المنهج الذي فتح آفاقا ورؤى جديدة للبحث في مجال الدراسات اللغوية، كما أصبحت النظرية التداولية بديلا نقديا للنظريات السابقة.

1) **تعرف التداولية:** يرجع مصطلح التداولية إلى الجذر اللغوي "دول" الذي لا تخرج معانيه – وإن اختلفت– عن معاني التحوّل والتبدّل، فقد جاء في لسان العرب لـــ (ابن منظور) «تداولنا الأمر أخذناه بالدول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر...ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته

هذه مرة وهذه مرة، وتداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرّة وهذا مرّة أخرى»[1].

أما بالنسبة للمصطلح العربي "التداولية" فهو ترجمة للمصطلح الغربي pragmatique الذي يرجع بدوره للجذر اللغوي "pragma" الذي يعني بالإغريقية القديمة "فعل العمل" "action de faires". مع مراعاة عدم الخلط بين مصطلح pragmatique (التداولية) ومصطلح "pragmatisme" (الفلسفة الذرائعية الأمريكية).

إلاّ أنّ بعض المشتغلين بالدرس اللساني الحديث يعطون لمصطلح pragmatique ترجمات أخرى عديدة منها: علم المقاصد، المقاميات، استخدام اللغة، لغة التخاطب...إلخ.

والمنهج التداولي هو تيار نشأ بامتزاج وتقاطع مجموعة كبيرة من الأفكار والنظريات التي تتفق في ما بينها على الطابع الاستعمالي للغة، ما يجعل من إيجاد تعريف دقيق وواضح المعالم لمصطلح التداولية أمرا صعبا جدا. كما أنّ التعريفات التي وضعت لهذا المصطلح قد تعدّدت وتنوّعت بتعدّد وتنوّع تخصّصات أصحابها ومجالات اهتمامهم، بل وصلت إلى درجة التناقض في ما بينها في بعض الأحيان.

وإنّ أقدم تعريف للتداولية يعود للفيلسوف الأمريكي (شارل موريس Charls Morris) الذي قام بتقسيم السيميائية إلى ثلاثة أجزاء: علم التراكيب syntaxe (يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها ببعض)، علم الدلالة sémantique (يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدلّ عليها وتحيل إليها) والتداولية pragmatique التي عرّفها بأنّها الجزء الذي يدرس العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، وكانت التداولية حسبه «مقتصرة على دراسة ضمائر المتكلّم والمخاطب (pronoms de (première et deuxième personne وظروف الزمان والمكان (الآن، هنا)، كلّ العبارات expressions التي تكتسب معانيها من

معطيات خارجة عن اللغة langage ذاتها، أي من الوضع situation الذي ينتج فيه الاتصال la communication»[2].

ونجد من الباحثين العرب الدكتور (صلاح فضل) يقول: «التداولية هي الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام»[3]. كما يقول الدكتور (عبد المالك مرتاض) إنّ مصطلح التداولية «من إجراءات القراءة التحليلية السيميائية للملافظ التي هي الوحدات الصغرى للنص، أو الخطاب، ويأتي هذا الإجراء – الذي يرقى إلى مستوى المفهوم– لاحقا أو ملازما للقراءة التي تقوم على دلالة المعاني في النص فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيدا، فتلتمس كلّ الاحتمالات التي يمكن أن يشعّ بها الملفِظ (باصطلاح حازم القرطجاني)»[4]. وعلية فالتداولية هي «دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لمَ تكون مجموعة من الجمل شاذة تداوليا أو تعدّ من الكلام المحال كأن يقال مثلا: أرسطو يوناني لكن لا أعتقد ذلك، أو يقال: آمرك أن تخالف أمري، أو يقال: الشمس لو سمحت تدور حول الأرض»[5]، وهي «دراسة للغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، تقوم على مراعاة كلّ ما يحيط بعملية التخاطب، للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب بحسب قصد صاحبه، وتبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التواصلي الذي يوجد فيه المتلفّظ بالخطاب والسامع له»[6] فتجاوزت بذلك السياق اللغوي في دراسة أي نص.

2) **النشأة والتطور:** يعود الفضل الأول في استحداث مصطلح التداولية للفيلسوف الأمريكي (شارل بيرس Charls-Pierce) وهذا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهذا من خلال نشره لمقالة له تحت عنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟". غير أنّ الاستعمال الأول لهذا المصطلح كان سنة 1938 على يد الفيلسوف (شارل موريس) الذي أعطى للتداولية تعريفا في سياق تحديده

للإطار العام لعلم العلامات Sémiologie، وقد نبّه (موريس) في كتابه "أسس نظريات العلامات" على أنّ «الأساس الأول في ظهور المنهج التداولي كان بمثابة ردة فعل على معالجة "تشومسكي" للغة بوصفها شيئا تجريديا أو حصرها في كونها قدرة ذهن صرفة متجاهلا استعمالها ومستعملها ووظائفها»[7]، الأمر الذي أدّى بالباحثين إلى اللجوء إلى المنهج التداولي الذي أعطاهم رؤى كثيرة ومتعدّدة، في مقابل قصور الدراسات الشكلية وإهمالها لدراسة اللغة في تجليها الحقيقي الذي يتمثّل في التواصل الفعلي بين الأفراد.

إلاّ أنّ التداولية لم تصبح منهجا يعتدّ به في الدرس اللغوي المعاصر إلاّ في أواخر القرن الماضي (سنوات السبعينات) على يد ثلاثة فلاسفة ينتمون إلى التراث الفلسفي بجامعة أكسفورد وهم أوستن Austin، سيرل Searl وجرايس *Grice «وكانوا جميعا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، ومن صميم عمل التداولية أيضا»[8].

ولقد ذكر (ماسMass) أربعة منابع أساسية انبعثت منها الدراسات التداولية وهي:

1- السيميائيات المنطقية المرتبطة "بنادي فينا" الذي كان يمثله أساسا (فريج Freg) و(كارناب Carnap) و(فيتجنتشتاين Wittgenstei) حيث اجتهد هذا التيار في إعادة بناء لغة صورية تكون أداة هامة لوصف وتأويل العالم.

2- سيميائيات (شارل موريس) وقد تفرّع عنها تيار أعيد التفكير فيه من خلال مكون العمل؛

3- فلسفة الذرائعية الأمريكية " pragmatisme" لـــ (شارل بيرس).

3) المقاربة التداولية: أصبحت التداولية في العصر الحديث من أكثر المناهج اللسانية القادرة على التحليل اللغوي، فهي «فرع من علم اللغة يبحث في اكتشاف

السامع مقاصد المتكلّم أو هو دراسة معنى المتكلّم»[9]. فتكون بذلك قد تجاوزت في دراستها الشكل والصورة إلى المضمون أو المعنى «فالمتكلّم كثيرا ما يعني أكثر ممّا تقوله كلماته»[10]. كما تعتبر كيفية استعمال اللغة في الاتصال هم الدرس التداولي.

يمكننا القول إنّ اللسانيات التداولية هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية، أي ما يسمى بـــ compétence de communication، التي تقابل الملكة اللغوية الخالصة compétence linguistique كما حدّدها (تشومسكي).

وإنّ أيّ إنتاج لغوي هو في حقيقة الأمر إنتاج لغوي لوضعية تواصلية ومتفرّدة لهذا كان التداول الحقيقي لمقطع من مقاطع اللغة يتطلّب توفر أربعة عناصر أساسية هي:

متكلّم (مرسل)، سامع (مرسل إليه)، وضعية تواصلية، زمان ومكان.

وهذا ما يؤكّد أنّ البعد التداولي يختلف تماما عن اللسانيات التي غضّت النظر عن هذه العناصر زمنا طويلا وصبّت اهتمامها على الجانب الشكلي للغة فقط. وإنّ المنهج التداولي يقوم على دراسة العلاقة بين المعنى اللغوي sens littéral* وتفاعله مع سياق الحال contexte situationnel و/أو السياق الثقافي.

فعند قول أحدهم مثلا: "إنّ الجو حار"

المتكلّم هنا يخبرنا أنّ الجو حار (المعنى اللغوي)، إلاّ أنّ هذا الملفوظ يمكن أن يهدف المتكلّم منه إلى مقاصد أخرى كامنة (معاني المتكلّم) لا يبوح بها ولكنّها تفهم من خلال السياق الذي أُنتج فيه هذا الملفوظ، كأن يقصد:

- شغّل المكيف؛
- ناولني كوبا من الماء لأشرب؛
- افتح النوافذ؛
- أنا أفكر في أخذ حمام... وغيرها من المقاصد الضمنية المختلفة.

إذن، فمبدأ المسكوت عنه (أو المعنى الضمني) في قراءة النص وفهمه هو مفتاح الدرس التداولي اللغوي «وهذه الخاصية التي تتمتع بها هذه النظرية تجعل منها أداة شديدة الفعالية لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي حدودها ولا تنغلق أفاقها » [11]. وإنّ من مهام التداولية شرح كيفية سير العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات، فتدرس قواعد الاستدلال التي تمكّن المتكلّم من صياغة عباراته اللغوية المختلفة جميعها والتي يكون فيها التحليل التداولي يتطلّب تحليلا تركيبيا، وتحليلا دلاليا مع احترام هذا الترتيب، كما يوضّح ذلك الشّكل الآتي.

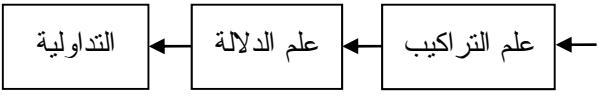

الوصف اللغوي لـــ ق المحتوى الإخباري لـــ ق القيمة اللغوية لـــ ق[12]

و« إنّ التداولية لاتنتمي إلى أي مستوى من مستويات الدرس اللغوي صوتيا كان أم صرفيا أم نحويا، أم دلاليا، لذلك فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية » [13] كما أنّها ليست مستوى آخر يضاف إلى المستويات السابقة. وقد قام اللساني الهولندي (هانسون Hanson) بحصر الدرس التداولي في ثلاث درجات:

* **تداولية درجة أولى:** تشمل مختلف نظريات التلفظ؛

* **تداولية درجة ثانية:** تقوم بدراسة الأسلوب الذي يتمّ فيه ربط القول بقضية مطروحة متباينة مع الدلالة الجانبية للملفوظ، فتتناول بالدراسة قوانين الخطاب والظواهر الضمنية للغة؛

* **تداولية درجة ثالثة:** تشمل نظرية أفعال الكلام.

هذا وتهتم التداولية في دراساتها بدراسة استعمال اللغة؛ وبشرح كيفية حدوث وسير العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات وشرح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية؛

– اختلاف أسباب أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي عن التواصل المباشر والحرفي.

4) أسس التداولية: يقوم الدرس التداولي على ثلاثة مفاهيم أساسية هي[14]:

أ– **مفهوم الفعل:** يتجاوز مفهوم الفعل في التداولية مفهوم تمثيل العالم وإنتاج ألفاظ دالة على المعاني، إلى القيام بفعل وممارسة التأثير من خلال استعمال اللغة{...}؛

ب– **مفهوم السياق:** يعني الموقف الفعلي الذي توظف فيه الملفوظات والمتضمن بدوره لكل ما نحتاجه لفهم وتقييم ما يقال؛

ج– **مفهوم الكفاءة:** ويعتبر مفهوم الكفاءة إشارة اعتماد التداولية لاستعمال اللغة في السياق أو هي حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق وبناء على ذلك تتحدد كفاءة وميزات المتكلمين.

5) **قيمة التداولية:** وإنّ استناد التداولية إلى الكثير من مجالات المعرفة الإنسانية (علم النفس، علم الدلالة علم الاجتماع،...) قد أكسبها صفة التوسع والغنى في معالجتها للغة، كما أنّ «قدرة التداولية على التدخّل في إثراء معاني الكلام والذهاب في تأويل المسكوت عنه، هي من الغنى والسعة ما يثري الخطاب بتمكينه من إثراء قراءات لم تكن دلالة اللغة البسيطة تحتملها ولا قادرة على تمثّلها»[15].

وتقدّم التداولية للمؤلفين والنقاد، والعاملين في الحقل الأدبي، والمتعاملين مع النصوص الأدبية، أدوات إجرائية ومنهجية للولوج إلى البنية الإبداعية للمبدع، فهي تقدّم أدوات جديدة للعمل النقدي، وتركّز على النص "المتحرّك" من خلال دراسته أثناء أدائه لوظيفته التواصلية.

ويرى (ليتش Litch) أنّ المنهج التداولي حلّ بعض المشكلات التي أفرزتها التحليلات الشكلية للغة من وجهة نظر المرسل الذي يبحث عن الطريقة المثلى لإنتاج خطابه وتأثيره في المرسل إليه، والمرسل إليه الذي يبحث عن أنجع الطرائق للوصول الصحيح إلى مقاصد المرسل «وهذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزمية تجريدية كما هو الحال في النحو، بل عبر تقدير ذهني عام ومحدّد وفقا لعناصر السياق»[16].

وعليه فإنّ أهمية التداولية تتمثّل في:

– معالجة صور القصور في اللسانيات البنيوية والتوليدية؛

– تحويل الدرس اللساني إلى درس للإنجاز اللغوي؛

– الاهتمام باللغة المستعملة من قبل المتكلّم لا الاهتمام باللغة المجرّدة لذاتها ومن أجل ذاتها؛

– الاهتمام بالسياق والتأكيد على العلاقة الوطيدة الموجودة بين المتكلّم والسياق الخارجي والتأثير المباشر لهذا السياق على مقاصد المتكلّم.

ثمّ إنّ البحث التداولي يستمدّ قيمته الأساسية من كونه يسعى للإجابة على بعض القضايا اللسانية السابقة، من قبيل: من يتكلّم؟ من هو المستقبل؟، ما هي مقصيدتنا أثناء الكلام؟ كيف نتكلّم بشيء ونرمي إلى قول شيء آخر؟ ما الذي علينا فعله حتى نتفادى الإبهام والغموض في عملية التواصل؟ هل المعنى المضمن يكفي وحده لتحديد المقصود؟

6) **مجالات الدرس التداولي:** نظرا لظروف نشأة التداولية واهتمامها بالمعنى المراد داخل السياق بين مرسل ومرسل إليه، أكّد أغلب الباحثين على أن الدرس التداولي يقوم على أربعة جوانب هي:

أ) **الإشاريات:** وتسمى أيضا المعينات، وهي عبارات تربط بين اللفظ والتلفّظ ولا يكون لها معنى إلاّ بالنظر إلى ظروف التلفظ، وقد اهتمّ بها علماء التداولية

الذين اعتبروا أنّ «النص يتألّف من عدد ما من العناصر التي تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام والتماسك بين تلك العناصر، وتسهم الروابط التركيبية والروابط الزمنية والروابط الإحالية في تحقيقها»[17]

والإشاريات تعتمد اعتمادا كليا على السياق الذي تستخدم فيه، فهي تأخذ دلالة جديدة في كل وضعية جديدة لأنّها غير محدّدة الدلالة أصلا. فما معنى كلمة "هو" أو كلمة "اليوم" أو كلمة "هناك" إذا لم توضع في سياق معين، تتحدّد من خلاله دلالتها.

ولقد جاء الاهتمام بظاهرة الإشاريات متأخرا ولم يبرز إلاّ مع بزوغ فجر الفلسفة المعاصرة للغة، وقد لوحظت الأهمية البالغة التي تحتلها التلفظات الإشارية في سياق التواصل «فأكثر من تسعين من المائة من التلفظات التي ننطق بها في حياتنا اليومية هي تلفظات إشارية يحدّدها السياق التلفظي الذي وردت فيه»[18]. وتنقسم الإشاريات إلى:

* **إشاريات شخصية:** وأكثرها وضوحا هي ضمائر المتكلّم (أنا، نحن)، ضمائر المخاطب المفرد والمثنى والجمع تأنيثا وتذكيرا، أمّا ضمير الغائب فيدخل في الإشاريات إذا كان حرا أي لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، أمّا إذا كان العكس فلن يعتبر من الإشاريات.

* **إشاريات مكانية:** (مثل هنا، هناك...) وهي عبارات تشير إلى مكان المتكلّم وقت التكلّم، فمكان المتكلم هو مركز الإشارة المكانية، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ولاختيار المكان أثر في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو جهة. كما يدخل النداء ضمن الإشارات الشخصية، وهو لا يفهم إلاّ إذا عُرف المرجع الذي يشير إليه.

* **إشاريات زمنية:** مثل (اليوم، غدا...) وهي عبارات تدلّ على زمان يحدّده السياق بقياس إلى زمان المتكلّم، فزمان المتكلّم هو مركز الإشارة الزمنية، فإذا لم يعرف هذا المركز التبس الأمر على السامع أو القارئ.

* **إشاريات اجتماعية:** مثل (جلالتك، سيادتكم، ..) وهي ألفاظ تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين باعتبارها علاقة رسمية formel أو غير رسمية informel أو علاقة حميمة أو غير حميمة.

ب) **الافتراض المسبق:** يؤسّس المتكلّم حديثه وتواصله مع المتلقي على هذا الافتراض المسبق، والذي يتمثّل في المعلومات المشتركة بين المتكلّم والمتلقّي فالمتكلّم يتحدّث مع المخاطب على أساس ما يفترض مسبقا أنّه معروف عنده؛ فإذا قال له: اغلق الباب، فهو يفترض سلفا أن تكون الباب مفتوحة، وأنّه يوجد سبب لإغلاقها، وأنّ المتكلّم في منزلة تسمح له بإصدار الأوامر، وأنّ المخاطب قادر على إغلاقها...وغيرها من الافتراضات المسبقة التي لا يصرّح المتكلّم بها، وكلّ هذا مرتبط بسياق الحال وعلاقة المتكلم بالمخاطب.

هذا وقد ميّز الباحثون منذ سبعينات القرن العشرين بين نوعين من الافتراض المسبق الافتراض الأول هو الافتراض الدلالي أو المنطقي الذي يكون مشروطا بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت القضية (أ) صادقة كان من الواجب أن تكون القضية (ب) صادقة والافتراض الثاني هو الافتراض التداولي السابق الذي لا دخل له بالصدق أو الكذب فالقضية الأساسية يمكن أن تفنّد دون أن يؤثّر ذلك على الافتراض السابق.

جـــ) **الاستلزام الحواري:** رأى (جرايس) أنّ أبرز ما يظهر في العملية التخاطبية هو قيمة الخطاب المرسل، أو مدى نجاح المخاطب في إرسال خطابه وتوضيح معناه، كما لاحظ الفرق بين ما يقال وما يقصد في عملية التخاطب فما يقال (المعنى الصريح) هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمتها اللفظية الظاهرة

وما يقصد هو ما يريد المتكلّم أن يبلغه إلى السامع على نحو غير مباشر اعتمادا منه على أنّ السامع قادر على الوصول إلى مقصد المتكلّم بما يتوفر عنده من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال. وقد أدّى الانتقال من ما يقال إلى ما يقصد إلى ظهور فكرة الاستلزام Implicature. حيث قام (جرايس) سنة 1975 من خلال نشره لمقالة بعنوان "المنطق والمحادثة logic and conversation" بتوجيه الدرس التداولي إلى الاتصال الضمني communication implicite ودور السياق في تأويل الملفوظات وعمل على دراسة مقاصد المرسل وقدرة المرسل إليه على فك رموزها. فقام بوضع مقياس لمبادئ المحادثة (مقياس جرايس)، أين اعتبر المحادثة عملية مشاركة ومعاونة بين المتكلمين وفقا لمبدأ التعاون coopération الذي يعتبر من أهم مبادئ حل مشاكل سوء التفاهم التي تحدث بين المشاركين في الحديث وهو مبدأ عام يضمّ تحته أربعة مبادئ فرعية هي:[19]

* **حكمة الكم maxime de quantité:**

- أن تكون مشاركتك تحتوي على الكمية المطلوبة من المعلومات؛
- أن لا تحتوي مشاركتك على معلومات أكثر من الطلوب.

* **حكمة الكيف maxime de qualité:**

- أن تكون مشاركتك صادقة حقيقية veridique
- لا تأكد شيء أنت تعتقد بأنّه خاطئ
- لا تأكّد أمرا وأنت لا تملك الدلائل الكافية لإثباته

* **حكمة العلاقة maxime de relation:**

ــ تكلّم في الموضوع (كن pertinent)

* **حكمة الطريقة maxime de manière:**

- كن واضحا
- تجنّب التعبير بغموض

– كن مختصرا

– كن منظّما

نظرية أفعال الكلام: يرى مؤسس تداولية أفعال الكلام (أوستين) متأثرا بالقول: "المعنى هو الاستعمال" أنّ وظيفة اللغة لا تقتصر على نقل وإيصال المعلومات وإرسالها، أو التعبير عن المشاعر التي تختلج في صدورنا والأفكار التي تراودنا ورأى أنّ اللغة يجب أن تهتم بتحويل ما يبدر من أقوال في إطار ظروف سياقية إلى أفعال ذات سمات اجتماعية.

ويمكننا تلخيص فكر (أوستن) في نقطتين اثنتين[20]:

* النقطة الأولى: تتمثل في رفضه ثنائية الصدق والكذب؛

* النقطة الثانية: تتمثل في إقراره أنّ كلّ قول énoncé عبارة عن عمل.

فلأنّ الأقوال أعمال يصعب الحكم عليها بالصدق والكذب. وهذا ما جعله يرفض تقسيم الجمل إلى جمل تقريرية وأخرى إنشائية (التقسيم الذي اعتمده في البداية أي في المرحلة الأولى من أبحاثه) وأكّد أنّ «كلّ جملة، منذ اللحظة الأولى التي تلفظ فيها بشكل جدي sérieusement، تستدعي القيام بثلاثة أفعال، فعل قولي وآخر إنجازي، وفي بعض الأحيان فعل تأثيري أيضا»[21]، فقام بتقسيم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام: فعل لفظي أو قولي acte locutoire (كالطلب، الأمر الوعد، الوعيد...)، لا ينعقد الكلام إلاّ به وفعل تأثيري acte perlocutoire (يخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول...) لا يلازم الأفعال جميعها، فمن الأفعال ما ليس له تأثير على السامع، وفعل إنجازي acte illocutoire وهو الفعل الذي كان محور دراساته والمبدأ الذي أسّس عليه النظرية الإنجازية.

ولم يكن كافيا ما قدّمه (أوستين) لوضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، فجاء تلميذه (سيرل) وطوّر النظرية الإنجازية في بعدين أبعادها الأساسية: المقاصد والاتفاقات conventions و«يمكن رؤية الأفعال الكلامية والجمل التي تؤدي إلى

إنجازها كوسائل خاضعة للعقد والمواضعة moyens conventionnels من أجل التعبير عن المقاصد»[22] أي أنّ «المقاصد تُنقل بفضل الاتفاقات conventions التي تحكم الجمل التي تعبّر عنها»[23] فصبّ اهتمامه على الأفعال الإنجازية، وقام بتقسيم الأفعال الكلامية إلى أصناف خمسة هي: الإخباريات، التوجيهات، الالتزامات التعبيرات والإعلانيات. كما ميّز بين الأفعال الإنجازية المباشرة التي تطابق قوتها الإنجازية قصد المتكلّم، والأفعال الإنجازية غير مباشرة وهي التي تخالف فيها قصد المتكلّم.

7) فروع التداولية: نتج عن اتساع مجال الدراسات التداولية وتداخلها مع العديد من العلوم اللغوية الأخرى ظهور عدّة فروع لهذا المنهج يختلف كل منها عن الآخر وهي:

* **تداولية اجتماعية pragmatique sociale:** وهو الفرع الذي يهتم بدراسة شروط الاستعمال اللغوي التي تولّدت عن السياق الاجتماعي.

* **التداولية اللسانية pragmatique linguistique:** وهو الفرع الذي يدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية structural .

* **التداوليات التطبيقية pragmatique appliquée:** وهو الفرع الذي يهتم بدراسة مشاكل التواصل في مختلف المواقف، وتظهر أهميته لمّا يكون للاتصال في موقف ما نتائج خطيرة كما هو الحال في جلسات المحاكم، الاستشارات الطبية...

* **التداولية العامة pragmatique générale:** هو الفرع الذي يهتم بدراسة الأسس والمبادئ التي يقوم عليها الاستعمال الاتصالي للغة.

8) علاقة التداولية بالعلوم الأخرى: إنّ التداولية لا تندرج تحت أي علم من العلوم التي لها علاقة باللغة، لكنها تتداخل معها في جوانب عدّة:

* **علم الدلالة:** تشترك التداولية مع هذا العلم في دراسة المعنى رغم وجود اختلاف في الاهتمام ببعض مستويات هذا الأخير؛ إلاّ أنّ التداخل بين التداولية والدلالة كبير جدا إلى حدّ الالتباس، «فكثير من علماء الدلالة لا يتحرّجون من الخوض في المسائل التداولية وهم يتحدثون عن مشكلات الدلالة، بل إنّ منهم من يرى أنّ التداولية ليست علما مستقلا بل ينبغي أن تنضوي تحت علم الدلالة»[24] لاهتمامها الكبير بالمعنى.

* **علم اللغة الاجتماعي:** تشترك التداولية مع هذا العلم في العمل على إظهار أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث، وموضوع الحديث ومرتبة كلّ من المرسل والمرسل إليه وجنسهما، وكذلك أثر السياق غير اللّغوي في اختيار السمات اللغوية.

* **علم النفس اللغوي:** تشترك التداولية مع هذا العلم في دراسة أثر قدرات المشاركين في الحديث على أدائهم، كالقدرة على التركيز، القدرة على الفهم، القدرة على الانتباه، الذاكرة الشخصية وغيرها من القدرات الذهنية والنفسية التي تختلف بطبيعة الحال من شخص لآخر ومن مقام لآخر.

* **تحليل الخطاب:** تشترك التداولية مع هذا العلم في الاهتمام بتحليل الحوار وتشترك معه في عدد من المفاهيم الفلسفية واللغوية كالعناصر الإشارية والمبادئ الحوارية.

استعراض بعض المصطلحات المهمة في التداولية: على ضوء كلّ ما سبق يكون لزاما علينا تعريف بعض المصطلحات التي يعتبر تحديد مفاهيمها أساسيا في الدرس التداولي:

* **المرسل destinateur:** وهو الملقي، المتكلّم، الناقل، المتلفظ، اللافظ المخاطِب المتحدّث، المحاور والناقش. ويعتبر المتكلّم هو «أحد المرتكزات الأساسية في التداولية التي تبحث في معنى المتكلّم وقصده ونواياه في الخطاب»[25].

و«إنّ التلفظ بشيء يعني تحمّل مسؤولية ما يقال، فكلّ فعل كلامي يفترض التكفّل بالملفوظ سواء من حيث القيام بتنميطه أم لا، قبول أو رفض صلاحيته، فإنّ الذات المتحدّثة تلعب دورا هاما في الحدث التخاطبي الذي تؤديه»[26]. وقد حضي المتكلّم باهتمام خاص في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة، كالنظرية السلوكية، فهو المثير الذي يستدعي الاستجابة، ونظرية (فيرث Firth) الذي أكّد على ضرورة مراعاة عنصر المتكلّم (هل هو ذكر أم أنثى، كبير أم صغير، مفرد أو جمع أو مثنى، شكله، نبرة صوته) وإلى غير ذلك من سمات شخصيته ومكانته في المجتمع وثقافته وعقيدته، فدلالة الكلمة تختلف باختلاف هذا المتكلّم.

* **المرسل إليه destinataire:** وهو المتلقي، المستمع، المنقول إليه مع العلم أنّ المصطلحات الثانوية التي تطلق على المرسل مثل المتحدث أو المتلفّظ أو المحاور أو المناقش قد يرادفها في بعض الأحيان المستقبل أي المرسل إليه.

ولقد أولى دارسوا اللغة على اختلاف وجهاتهم وتخصصاتهم، عناية خاصة بالمخاطب لكونه أحد أطراف العملية الخطابية، واعتبروا أنّ «وصول الأفكار الملقاة إليه بجلاء ووضوح هي الغاية المنشودة التي يسعى المتكلمون إلى تحقيقها بمفردات اللغة، إذ أنّ مفردات اللغة إشارات يحاول المتكلّم إيصالها إلى السامع أو القارئ»[27]. كما أخذ المرسل إليه حيّزا واسعا في الدراسات اللغوية العربية والغربية على حد سواء، فظهرت نظرية التلقي التي بينت أثر المتلقي أو المخاطب في الأدب باعتبار أنّ من أهم معطياتها أنّ المعنى والمبنى ينتجان عن التفاعل مع المتلقي (القارئ) لكونه المبدع المشارك. كما ظهرت نظريات أخرى عند الغربيين بينت أثر المتلقي في اللغة ووظيفتها في عملية الاتصال وأثرها في المجتمع كالنظرية الذهنية التي اعتبرت «أنّ لكلّ تعبير لغوي فكرة جاهزة في ذهن المتكلّم ومقدرته على إنتاج التعبير الملائم هو الذي يستدعي الفكرة نفسها في عقل

السامع»[28]، أمّا النظرية السلوكية فقد وضعت المعنى في الطريقة التي يتجاوب معها السامع.

* **التلفظ énonciation:** إنّ مجال استعمال اللغة هو الخطاب، وهذا لا يكون إلاّ بعملية قولية هي عملية التلفظ، فهو العملية التي من خلالها يتم تحقيق اللسان تحقيقا فعليا وهو فعل إنتاج واستعمال اللغة الفردي في سياق معيّن ومحدّد، ينتج عنه الملفوظ énoncé، وبما أنّ التلفظّ هو مصطلح تداولي فهو لا يهتم بالملفوظ إلاّ في الاستعمال أو التداول.

* **الملفوظ énoncé:** أو المقول و« هو التجلي الآني للخطاب المحقّق في وضعية محدّدة، فسواء كان منطوقا أو مكتوبا فهو موضوع ملموس محدّد وقابل للملاحظة في ماديته، ويبقى موجها إلى الإحالة على العالم، وسواء أكان المرجع حقيقيا أو خياليا، لسانيا أو غير لساني فهو يشكل هدف التلفّظ ولا يمكن للتحليل أن يهمله»[29]. ويجيب (كلارك Clark) عن السؤال: لماذا تكون الملفوظات هي الأساس في الاستعمال اللغوي؟ فيقول: «أولا، لأنّ الملفوظ، وليس الجملة، هو ما ننتجه في الواقع أو نسمعه أو نقرأه، ولم يحصل أن سمعنا جزءا من اللغة لم ينتجه متكلّم، لجمهور ما، في مناسبة ما {...} كما أنّ كثير من الملفوظات، لا تنسب إلى نموذج الجملة، فقد تكون الملفوظات مكونة من عبارة مثل "فنجان من القهوة"، أو كلمة مثل "آسف"، أو من وحدات ذرية لا تشكل أجزاء من الجملة مثل "آه مرحبا".[30] ولا سيما إذا أخذنا الجملة بمفهومها النحوي الصوري وفصلناها عن ظروف إنتاجها.

خاتمة: التداولية منهج فتي لم تكتمل معالمه بعد، فالمتتبع للأبحاث التي تقام حوله والمطلّع على آخر الكتب التي تناولته بالدراسة والتحليل لا يجد صعوبة في ملاحظة الاختلاف الكبير الموجود في تحديد مفهومه ووظائفه ومجالاته. ويصل الاختلاف أحيانا إلى القول بشرعيته أو عدم شرعيته. إلاّ أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ

صَقَلهِ لأدوات تحليله طول العقود الأخيرة، ونظرته المتجدّدة للفرد باعتباره كائنا ذا قدرة وإرادة، وكذلك اكتسابه معارف كثيرة وتكوينه لتجربة طويلة من خلال التفاعل الدائم بواسطة اللغة، كلّ هذا سيفتح أمامه آفاقا جديدة وعديدة في مجالات مختلفة، ومنها تلك التي لم يكن يعتدّ فيها بالبحث التداولي سابقا مثل علم النفس التعليمية، الإعلام الآلي وعلم الاقتصاد.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر/ بيروت، مجلد11، ط3، 1994، ص 253/252.

2- Anne Reboul et jacques moeschler, La pragmatique aujourd'hui, une nouvelle science de la communication, Editions de seuil, paris, 1998, p2.

3 – نعمان بوقرة، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، منشورات باجي مختار، عنابة/ 2006، ص 174.

4 – عبد المالك مرتاض، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، ص 64/63

5 – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية/ الإسكندرية، 2002، ص 11.

6 – باديس لهويمل، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري بسكرة، ص 159.

7 – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1. بيروت: 2003، دار الكتاب الجديد المتحدة، ص 221.

* – رغم أن مصطلح "التداولية" لم يذكر في أي من أبحاثهم ولا لمرّة واحدة.

8 – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 9.

9 – نفسه، ص 12.

10 – نفسه، ص 13.

* يرى بعض الباحثين أنّ للمعنى ثلاث مستويات، المعنى اللغوي وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الألفاظ، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، والمعنى الكامن أو معنى المتكلّم.

11 – عبد المالك مرتاض، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، ص 74.

12 – عمر بلخير ص25، ع/ O-Ducrot, J-C-Auscombre, l'argumentation dans la langue, Bruxelles, Pierre Mar daya Editeur, p17.

13 – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 10.

14 – محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد، الإمارات العربية المتحدة، ط1 2004، ص 95.

15– عبد المالك مرتاض، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، ص 65.

16 – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، 34.

17– سعيد حسن بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب القاهرة، 2005، ط1، ص 94.

18 – نفسه، ص 441.

19 - Ibid, P54/55/56

20 – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ص 22.

21 - Anne Reboul et jacques moeschler Pragmatique aujourd'hui, p5.

22 - Anne Reboul et jacques moeschler La pragmatique aujourd'hui, P5/6

23 - Anne Reboul et jacques moeschler Pragmatique aujourd'hui, p10.

24 – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 52.

25 – أسعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، دراسة في النحو والدلالة، دار الحامد عمان/الأردن، ط1/2011، ص 62.

26– حمو الحاج ذهبية، إشكالية النص في اللسانيات التداولية، مجلة المخبر/تيزي–وزو، 2015، ص41.

27– سعد خلف العوادي، سياق الحال في كتاب سيبويه، دراسة في النحو والدلالة، ص70/69.

28– نفسه، ص 71 .

29– حمو الحاج ذهبية، إشكالية النص في اللسانيات التداولية، ص 38.

30– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عن Herbert-Clark, Arenas of language use, the university of Chicogo press, USA, 1992 p113/114.